مجلة الرائد

العدد : ٢١١ الموافق في ربيع أول ١٤٢٠ هجري ٧ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : الطغاة وحرية القلم – ٤ –	بقلم : د. موفق الحكيم

وهناك من يتصدى للطاغوت بادئ ذي بدء ، ويُدافع عن الحق والخير والعدل ، ولكنه لا يستطيع أن يتابع المسير ، ولا يريد أن يتحمل نتائج ما يسطره القلم ، وما ينجم عنه من مشقة ومعاناة وألم ، وما يترتب على ذلك من تبعات وعقبات وتضحيات ، فرُبَّ كلمةٍ سلبت نعمة وجلبت نقمة . إنهم أناسٌ ملُّوا المقاومة فاستسلموا ، واستصعبوا الغاية فاستناموا ، عاشوا مترددين ما بين عذاب الضمير وعذاب المعارضة ، فاحتملوا الأول وتخلوا عن الآخر ، عاشوا شيوخاً وهم في سن الشباب ، وعاشوا شباباً وهم في سن الشيخوخة ، عصوا الهوى صغاراً وأطاعوه كباراً . جاء في مجموعة الدكتور طه حسين (المجلد ١١- ص ٤٢١) : قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : " ألم تر إلى فلان وُلد حُراً ، وشب حراً ،وشاخ حُراً ، فلما دنا من الهرم آثر الرق فيما بقي من الأيام على الحرية التي صحبها في أكثر العمر ؟ قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أضعفته السن ، فلم يستطع أن يتحمل الشيخوخة والحرية معاً ، وأنت تعلم أن الحرية تحمل الأحرار أعباءً ثقالاً " .

والمصيبة لا تقف بهؤلاء الناس عند هذا الحد ، بل إنهم يسقطون في بحر التأويلات ومستنقع التبريرات ، ويُحاول كلاً منهم أن يجد لنفسه الأعذار من أجل أن يلحق بركب الطاغوت وأن يصبح تابعاً من أتباعه ، بل عبداً من عبيده يسخر قلمه وإمكانياته لتمجيد الطاغوت وحكمه وزبانيته من جهة ، ومن جهة أخرى لمحاربة رفاق الأمس ، أعداء اليوم من أنصار الحق والحرية ، ومن جهة ثالثة لتبرير تحوله وانقلابه . قال التلميذ الناشئ لشيخه الحكيم (عصام العطار) : هل رأيت أسوأ من فلان الذي تحول على الزمن عبداً صريحاً للطاغوت ، وطالما تغنى بالحرية والكرامة والتمرد على الطاغوت ؟. قال الشيخ الحكيم : أسوأ منه فلان الذي تحول هو الآخر عبداً للطاغوت كتحوله أو أشد ، لكنه راح يغلف واقعه الجديد ويلتمس له المبررات الكاذبة ، ويُلبسه ثوباً زائفاً من الاقتناع والمصلحة ، فأضاف إلى حقارة العبودية ، رذيلة الإزدواجية والمخادعة والكذب . ويقول الأستاذ عصام العطار أيضاً : " إذا كتم تلمسون لأنفسكم الأعذار في مهادنة الباطل ، فما هو عذركم في محاربة الحق "

إن القلم يا صاحبي في يد الشجاع الحر الأبي منارة تهدي ونار تكوي وعقول تبني ، والقلم في يد الجبان الدنيء ، كالخنجر بين يد الطفل الصغير يجرح ويُدمي ، وكالدواء بيد المتطبب الجاهل الغرير يقتل ولا يشفي ، وإن تملق القياصرة تكلف الشعراء شططاً عظيماً يا صاحبي !!

وأديب قوم تستحق يمينُه قطع الأنامل أو لظى الإحراق

وهناك من يهاجم طاغوتاً في بلد ويمدحه في بلد آخر ، يلعن إبليس هنا ، ويصاحب شيطاناً هناك ، ولهؤلاء نقول : إن الحق واحد لا يتعدد ولا يتغير ولا يتبدل مهما تبدّل الزمان وتغير الأشخاص ، ونحن لا نضرب بسيف الحق باطلاً هنا ، ونستله ضد الحق هناك ، يقول الأستاذ عصام العطار : " إننا لا نكفر بالطاغوت في مكان ونؤمن به في مكان ، ولا نحاربه في بلدٍ ونكون جنده في بلد ، ولكننا نكفر بالطاغوت ونحاربه حيثما كان ، ونقف مع الحق في كل مكان وزمان " ويقول أيضاً : " هيهات هيهات .. إن مخاصمتي لطاغوت لا يمكن أن تضعني في خدمة طاغوت آخر مهما كانت الظروف "

يا صاحب القلم ! إذا كنت تخشى عواقبه ، وتخاف من تحمل نتائجه ، فاكسر القلم ، وتجنب قول الباطل ، وإن تكن قادراً على قول الحق ، واعتزل الكتابة ، ولا تضع المبررات لعجزك وخوفك وضعفك ، فإنك إن أرضيت طاغوت الأرض فلن يرحمك جبار السماء :

وما من كاتب إلا ستبقى كتابتُه وإن فنيت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يَسرُّك في القيامة أن تراه

ويقول الأستاذ عصام العطار : " وإن لم تستطع أن تكون سيف الحق ، فلا تكن سيف الباطل ، وإن لم تكن في جند الله فلا تكن ضد الطاغوت "

ويقول الأستاذ محمد الصباغ " وهناك خطباء أبواق للسلطة يقولون ما يردده الحاكم ولو كان منكراً ، ويسكتون عما يرون من المخالفات بل يسوغونها ويؤولونها ويمدحون رجال السلطة بما ليس فيهم ، وقد يُعذر المرء في بعض الحالات بأنه لا يستطيع أن يقول الحق لما يخشى أن يجره عليه من البلاء ، ولكنه يجب ألا يقول الباطل وليس له عذر " (تذكرة للدعاة ص ٩)

نعم يا صاحبي ، إن الأديب كالفنان الذي يُسخر قلمه لخدمة الواقع الفاسد ، يصبح جزءاً من هذا الواقع الفاسد ويصبح مسؤولاً أمام الله عز وجل عن مشاركته في هذا الواقع وخدمة الأهواء والطاغوت . يقول الأستاذ عصام العطار " إذا سقطت في شراك الواقع الفاسد غَدوت على الزمن جزءاً من هذا الواقع ، وعدواً فعلياً لكل مثل أعلى وهدف رفيع ، وفقد وجودك غايته ومعناه الأصيل الكريم " ويقول أيضاً : " نعم ، أنا أحب الأدباء والفنانين الذين يعتزون بشخصيتهم ويحرصون على كرامتهم ، ويخلصون لأدبهم وفنهم ، ويأبون أن يضعوا أنفسهم وأدبهم في خدمة المطامع والمنافع والأهواء وخدمة

الطاغوت بأي صورة من الصور . إذا باع الأديب أو الفنان نفسه وأدبه وفنه ، فقد رسالته الحقيقية ، وخان أمانة الأدب والفن والموهبة التي اختصه بها الله عز وجل ”

وإن يك الشعر ما يرون فإني منك يا شعر قد نفضت بناني

والشعر ماذا سيبقى من أصالته ؟
إذا تولاه نَصاب ومدّاح
وكيف نكتبُ .. والأقفال في فمنا ؟
وكل ثانية يأتيك سفاحُ
حملتُ شعري على ظهري فأتعبني
ماذا من الشعر يبقى حين يرتاحُ ؟

وإذا كان عبيد القلم لا أربابه ، وإذا كان كتاب الطاعوت لا كتاب الحق هم العنصر الغالب في كل عصر ومصر ، وهذا هو واقعنا الحالي الأليم حيث علا الباطل وفار ، واشتد الطغيان وثار ، إلا أنه تبقى فئة قليلة من الكتاب تكتبُ مما يملي على الضمير والإحساس ، تنشد الحق ، وتدافع عنه ، وتوصله إلى الجماهير المتعطشة إليه رغم أنف الظالمين ، يقول محي الدين عطية :

مازلت أحلم بالسطور الخضر تجتاح الجليد
بعصارة القلم الذي يقتات أنسجة الوريد
ترضعه آلاف العقول خلاصة الرأي السديد
تسقيه آلاف العيون رحيقها ، أنى يريد
بجواهر الكلمات صادقة الحروف بلا مزيد
تنساب في الآفاق طائرة كعصفور غريد
تجتاز آلاف الحدود ، كراية النصر المجيد
وتدق في كل البقاع مآذن الفكر الرشيد

وهي أقلام حرة ، لا تتأثر رغبة أو رهبة بما يمليه عليها أصحاب النفوذ ، فاقدوا الضمير من الحكام والناس ، تقول الحق وتنشده وتطالب به ولا تخاف سجناً أو عذاباً أو قتلاً ، ولا ترى في الدنيا وزخارفها

ومتاعها إلا هماً وسراباً . يقول الأستاذ عصام العطار " لئن استطاع أعداء الإسلام ومستغلوه أن يكبلوني في غربتي بالقيود والأغلال ، وأن يمنعوني في كل مكان أستطيع أن أنشر فيه ما أعتقده من الحق ، فإن أعداء الإسلام ومستغليه لن يستطيعوا أن يقولوني الباطل مهما مارسوه من الضغوط ، ومهما كرروه من الوعيد ، ومهما حاولوه من القتل ، ومهما أمضوا فيه من الحرب ، ومهما لوحوا به من المغريات .. فدنياهم هذه وألف دنيا مثلها ليست أكثر في عيني من التراب "

الشعر ليس حمامات نطيرها
نحو السماء ، ولا ناياً وريح صبا
لكنه غضب طالت أظافره
ما أجبن الشعر إن لم يركب الغضبا !

وهي أقلام كلماتها مستمدة من دمائها ، وسطورها تظهر فيها آثار جروحها ، عانقت الكلمات والمدلولات إرادة النصر ومشاعر الإنسانية وجراحات البشرية ، فامتزج مداد القلم الأسود بدم الكاتب الأحمر ، وما أجمل أن يمتزج المدادان فامتزاجهما " أكسير الحياة " الذي تعيش فيه الكرامة والحرية ، ولأن امتزاج اللونين يعطي الحياة مستقبلاً أخضراً زاهياً للإنسان والكون .

شرابك ظلام ونتاجك ضياء فبورك من يُسيرك أيها القلم

إن الكاتب الحر الأبي هو الذي يقتات قلمه من نسيج أوردته ولُحمة أعصابه ، فيكون مداده من دم قلبه وتكون كلمات يراعه مشحونة بانفعالات أعصابه ، فتظهر آثار دمه في سطوره ، وتظهر آثار معاناته في كلماته ، يقول الأستاذ عصام العطار : " إننا لا نكتب بالمداد ، ولكن بدم القلب ، فمعذرة إذا ظهر في سطورنا أثر الجراح "

يقول نسيب عريضه :

أوْه ! ألم يكتب لهذا القلم إلا بأن يشكو الأسى والألم
يا قلمي الشارب خمر الشجا والمسمع الطرِّس صرير النقم
من أي غصن قصك المبترى؟ من أي غيم قد سقتك الديم؟
أفي حمى الغربان ثُقفت أم بين خوافيها ألفت الظلم ؟
نشأت نعَّاياً فلا غرو أن تحسب أن النعب كل النغمْ

أم كنــت عــوداً عنــد مــستنقع فــي نبتــةٍ تمـتص مــاء الـرِّمم
أم عشت في ظل من الغاب لم تـشرق عليـه الـشمس منـذ القـدم
فاسكب على الأبيض من أسود يلـذع مـن الأوراق لـذع الحمـم
مــا الحبــر مــا تنفثــه ناقمــاً ذاك ســويداءُ الحــشايا قلــمٌ

إن سر قوة الكلمة ليست في اختيار الألفاظ وانتقاء العبارات ، وإنما هو في مدلول قوة الإيمان الذي تُعبر عنه الكلمات ومدى التزام صاحب القلم بما يقول واستعداده للتضحية بذاته وماله من أجل الحق الذي يقول .

يقول الأستاذ عصام العطار : " إذا كانت الكلمة لا تعني موقفاً والإيمان لا يعني التزاماً ، فقد بطل مدلول الكلمات ، واستحالت ألفاظنا إلى ضرب من الخداع أو العبث أو الهذيان " ويقول : " ما أعظم مسؤولية الكلمة عند من يحسون بمسؤوليتهم عنها أمام الله وأمام الضمير ولا أقول أمام التاريخ ، فقد تحررنا من زمن بعيد - والحمد لله - من العبودية للتاريخ ، وما يمكن أن يقوله عنا أو يحكم به علينا في مقبلات الأيام والعصور " ويقول : " إنني لا أخط كلمة واحدة إلا وأحس بتبعاتها وتبعات ما ينتج عنها في حياة من يتقبلونها ويعملون بها وحياة أمتنا وبلادنا من الصواب أو الخطأ ، والخير أو الشر في الحاضر والمستقبل "

وقد يكون من نتائج الكلمة أن يلقى صاحبها الشهادة في سبيل الله أو العذاب والتشريد والنفي والبعد عن الأحباب .

مــاذا ســأقرأ مــن شــعري ومــن أدبــي
حــوافر الخيــل داســت عنــدنا الأدبــا
وحاصــــرتنا وآذتنــــا .. فــــلا قلــــمٌ
قــــال الحقيقــــة إلا اغتيــــل أو صُــــلبا

وقال آخر :

شـردوا أخيارهـا بحـراً وبـراً واقتلـوا أحرارهـا حـراً فحـراً
إنمــا الــصالح يبقــى صــالحاً آخـر الـدهر ويبقـى الـشر شـراً

كسروا الأقلام هل تكسيرها يمنع الأيدي أن تنقش صخراً
قطعوا الأيدي هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظر شزرا
أطفئوا الأعين هل إطفاؤها يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا
أخمدوا الأنفاس ، هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم ، فشكراً

ولكن كلماته تبقى بعد شهادته كالنور يضيء الطريق وينير المسالك للقادمين بعده ، وتصبح كلماته طلقات صائبة ، وسيول جارفة تُطيح بالظالمين وتجرف الباغين وتقتلع جذور المجرمين ، ولعل أكبر مثال في عصرنا الحاضر على شهيد الواجب والحق والكلمة سيد قطب رحمه الله الذي يقول " إنه ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها وتجمعها وتدفعها ، إنها الكلمات التي تقطر دماء لأنها تقتات قلب إنسان حي ، كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان ، أما الكلمات التي ولدت في الأفواه ، وقذفت بها الألسنة ، ولم تتصل بذلك النبع الإلهي الحي ، فقد ولدت ميتة ، ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً إلى الأمام ، إن أحداً لن يتبناها ، لأنها ولدت ميتة ، والناس لا يتبنون الأموات .. إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً ولكن بشرط واحد أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم ، وأن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم ، أن يقولوا أنه حق ، ويقدموا دماءهم فداءً لكلمة الحق ، إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدة حتى إذا متنا في سبيلها أو غذيناها بالدماء انتفضت حية وعاشت بين الأحياء "

ولقد صُدقت حياته كلماته ، فعاش لقول الحق ومات من أجل الحق ونسأل الله أن يجعل روحه الطاهرة في جنات النعيم .

عرضوا الحياة عليه وهي غباوة فأبى وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة في القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا
ربَّ البيان وسيِّد القلم وقيت قسطك للعلى فنم

والصراع مستمر أبدي ما بين القلم الحر وما بين الطاغوت الظالم المستعر ، وإذا كان النهار يتبعه دوماً الظلام ، وإذا كانت الشمس لا تبزغ في كل الأيام ، والفجر وإن بدا خيوطاً في بداياته إلا أنه نذير بطلوع شمس تزيح الظلام مهما اشتدت حلكته وطالت مدته ، وإن أول الغيث قطر ثم ينهمر . يقول د. محمد حسين هيكل : " على أن الظلم وإن تكاثفت ، والمظالم وإن اشتدت ، والطاغية وإن استبد ، كل

ذلك كان من أثره دائماً أن أثار شرارة الحرية فهتكت ظلمته وبددت غياهبه ، وكما تتراكم السحب وتحجب الشمس ، وتبعث على الأرض من الظلمة ما تنقبض له النفس ، ثم إذا بالمطر يستنفد السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ما تلبث هذه الظُّلم المتكاثفة في جو الطغيان أن تنبعث إلى نفس ملهمة كلمة الحق ترتفع في صيحة قوية خالصة ، فإذا الظلم تضطرب قوائمه ، وإذا بالطاغية يكفهر وجهه وإذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقاً على صاحب الصوت وعلى أنفسهم ثم إذا الصوت يعلو ويعلو ، ويرتفع ويرتفع ، وإذا القلوب التي وجلت من قبل رُعباً وخشية تتفتح لهذا الصوت وتستقبله فرحة مستبشرة ، ثم إذا هي تتبعه مؤمنة ، ثم إذا النور ، نور الحرية والحق يعم الأرجاء ، وإذا الظلم والظالمون والطغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحي القيوم . ”